دوافع العمل

من إشراقات نور العقل الذي اختص الله تعالى به الإنسان، القدرة على التخيل والتطلع، فالواقع الذي يعيشه الإنسان لا يشكل سقفاً لأشعة تفكيره، بل إنّ ذهنه يحلّق بعيداً متجاوزاً معطيات الواقع المعاش. لذا يمتاز الإنسان بحالة الأمل والتمني، وهو وليدة مَلكة الخيال، فحينما يتخيل شيئاً يتمناه، ويأمل الوصول إليه ويتطلع لتحقيقه. وأكثر منجزات الإنسان العلمية ومكاسبه الحضارية، كانت في بدايتها خيالات وأحلام، وآمال وتطلعات، حتى أصبح عندنا لون من ألوان الأدب الإبداعي. كما إنّ ارتياد الفضاء والسفر إلى القمر، الذي أنجزه إنسان القرن العشرين، كان حلماً وخيالاً داعب عقل الإنسان من القرن الثاني للميلاد. وعن المدى الواسع لتطلعات الإنسان وآماله، يقول الإمام عليّ (ع): "الأمل لا غاية له". "الآمال لا تنتهي". "لا تخلو النفس من الأمل حتى تدخل في الأجل". إنّ أهمية الأمل والتطلع عند الإنسان تتحقق عندما يكون وقوداً للحركة، وطاقة للسعي، وعندما يخلق حالة الاندفاع نحو العمل، وبنفس القدر يكون مؤثراً في حياة الإنسان وفاعلاً في واقعه. أما إذا تحوّل الأمل والتطلع إلى تمنيات فارغة، وتخيلات ساذجة، يكتفي الإنسان بالتلذذ باجترار صورها في مخيلته، والأنس بتكرارها على مسرح ذهنه، لن تكون لذلك أي تأثير على واقعه، ولن يلامس شيئاً من أوضاع حياته. فمجرد التمني لشيء دون السعي نحوه لا يعطيك ذرة من الحقّ في الوصول إليه، يقول تعالى: (أَمْ لِلإِنْسَانِ مَا

تَمَنّى) (النجم/ 24). ذلك أنّ السعي وحده هو طريق الإنجاز، يقول تعالى: (وَأَنْ لَيْسَ لِلإنْسَانِ إِلا مَا سَعَى * وَأَنّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَى * ثُمّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الأوْفَى) (النجم/ 41-39). ومن جانب فإنّ المعتقدات الدينية للإنسان تعني الإجابات التي يتوصل إليها عن التساؤلات التي ترتسم أمامه عن وجوده ومصيره ومساره في هذه الحياة. وقد تكون تلك الإجابات - المعتقدات- نتيجة بحث وتفكير ذاتي من الإنسان، أو تكون نتيجة تقليد واتباع ومحاكاة. بالطبع تتفاوت المعتقدات من حيث إصابتها للحقيقة والواقع أو مفارقتها لذلك، وفي درجة الإصابة أو المخالفة. وإذا كان الوصول إلى العقيدة الصحيحة ضرورياً ومهماً للإنسان، فإنّ ما يهمنا في هذا البحث، هو رصد مدى تأثير تلك العقيدة الصحيحة على واقع حياة الإنسان وأوضاعه. فالإيمان بعقيدة صحيحة لا يعني إنتاج واقع صحيح دائما وأبداً، إلّا بمقدار ما تنعكس تلك العقيدة على سلوك الإنسان وعلمه، والقرآن الكريم حينما يتحدث عن الإيمان يقرنه غالباً بالعمل الصالح، للتأكيد على مصداقية الإيمان وأثره في حياة الإنسان. يقول تعالى: (مَنْ آمَنَ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ) (المائدة/ 69). (وَأَمّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُ جَزَاءً الْحُسْنَى) (الكهف/ 88). (الّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصّالِحَاتِ طُوبَى لَهُمْ وَحُسْنُ مَآبٍ) (الرعد/ 29). ونجد هذا التلازم بين الإيمان والعمل مكرراً في أكثر من سبعين آية في القرآن الكريم، لكي يؤكد حقيقة هامة، هي ضرورة انعكاس الإيمان عملياً على حياة الإنسان وسلوكه، وأنّه لا قيمة له إذا كان مجرد نظريات حبيسة في الذهن، أو قناعات مختزنه في النفس. ففرص التقدم في الحياة متاحة للجميع. إنّ القدرة على السباحة في البحر تنجي الإنسان من الغرق، مؤمناً كان أو كافراً، فإذا لم يتقن المؤمن السباحة فإنّه سيغرق إنفاذاً لسنة ا، ولا يشفع له إيمان وتدينه في النجاة، وإذا كان الكافر قادراً على السباحة فسيصل إلى ساحل البحر بسلام رغم كفره، يقول تعالى: (كُلا نُمِدّ هَؤُلاءِ وَهَؤُلاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا) (الإسراء/ 20). ويخاطب الإمام علي (ع) مَن يراهنون على قوة الفكر والخطاب، مع ضعفهم في مجال العمل والحركة بقوله: "إنّكم إلى إعراب الأعمال أحوج منكم إلى إعراب الأقوال". ويقول أيضاً (ع): "الشريف عند ا سبحانه بحسن الأعمال لا بحسن الأقوال". إنّ سعي الإنسان هو الذي يصنع واقعه في هذه الحياة، وإنّ عمله ونشاطه هو الذي يحدد درجة مستواه الحياتي. وإذا ما رأينا الناس تتفاوت مستوياتهم، كأفراد وكأُمم ومجتمعات، فهناك مَن يصنف ضمن فلك العالم المتقدم، وهناك مَن يرزح تحت وطأة التخلف، فلا بد أن نبحث عن سبب هذا التفاوت في المجال السلوكي العملي. فالنجاح والفشل والتقديم والتأخر، ليس نتيجة لتفاوت مستوى التطلعات والآمال، ولا هو أثر حتمي للمعتقدات والأفكار المجردة، وإنما هو إفراز طبيعي لمستوى العمل والسعي والنشاط. ويقرر القرآن الحكيم، في آيتين كريمتين، أنّ عمل الإنسان هو الذي يحدد درجته ومستواه في الدنيا والآخرة. يقول تعالى: (وَلِكُلّ دَرَجَاتٌ مِمّا عَمِلُوا وَمَا رَبّكَ بِغَافِلٍ عَمّا يَعْمَلُونَ) (الأنعام/ 132). إنّ درجة ومستوى

كلّ إنسان، فرداً كان أو مجتمعاً، لا تتحدد من وحي تخيلاته وآماله وتطلعاته، ولا من خلال أفكاره ومعتقداته وإنما (وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِمَّا عَمِلُوا) (الأحقاف/ 19) أي أنّ درجته تتحدد عبر سعيه وعمله. إنّ البعض من الناس، بسبب الجهل، أو بدافع الكسل، يتوانى عن العمل والحركة، تشكيكاً منه في جدوى العمل وتأثيره، حيث يصاحب بحالة من الإحباط والعزوف عن الفاعلية. لهؤلاء يتوجه القرآن الكريم مؤكداً خطأ تصوراتهم، ومقرراً حتمية تأثير أي ذرة من العمل يقوم به الإنسان في هذه الحياة خيراً كان أو شراً. يقول تعالى: (لا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِنْكُمْ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ) (آل عمران/ 195). يقول تعالى: (فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ * وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ) (الزلزلة/ 8-7).